

ترجمة مختصرة لكتاب علم النفس الاجتماعي: مقاربات تجريبية ونقدية

Social Psychology: Experimental and Critical Approaches

(Wendy Stainton Rogers, 2003)

أ. حمزة الشافعي، ماجستير في الدراسات المقارنة- تخصص إنجليزية- جامعة ابن زهر،
أكادير- المغرب

ملخص: يدرس كتاب علم النفس الاجتماعي: مقاربات تجريبية ونقدية للكاتبة البريطانية ويندي ستاينتون روجرز مقاربتين مختلفتين في علم النفس الاجتماعي، وهما المقاربة التجريبية والمقاربة النقدية. وتنطلق الكاتبة من فكرة أساسية مفادها وجود صراع كبير بين المقاربتين، حد تشبيههما بـ "معسكرين" أو "قبيلتين" أو "قطبين" في حرب طاحنة نظرا لاختلاف منطلقاتهما ومرجعياتهما الإستمولوجية والأنطولوجية. لذلك، فالكتاب لا يسعى إلى إيجاد صيغة يتم بموجبها يمكن دمج المقاربتين في إطار مقارنة واحدة، وإنما غايته هي كشف وتحديد إيجابيات ومكامن ضعف كل واحدة منهما.

Abstract : The book entitled Social Psychology: Experimental and Critical Approaches by the British writer Wendy Stainton Rogers examines two different approaches to social psychology - experimental and critical. The writer's basic idea is that there is a great conflict between the two approaches, to the extent of being likened to two "camps, tribes or poles" in a devastating war, due to their different premises, and epistemological and ontological backgrounds. Therefore, the book does not seek to find a way by which the two approaches can be combined within one approach, but rather its goal is to explore and identify the strengths and weaknesses of each approach.

التعريف بالكتاب:

يتناول كتاب علم النفس الاجتماعي: مقاربات تجريبية ونقدية للكاتبة البريطانية Wendy Stainton Rogers الصادر عن مطبعة الجامعة المفتوحة – Maidenhead (2003 Philadelphia) مقاربتين مهمتين في علم النفس الاجتماعي وهما: المقاربة التجريبية والمقاربة النقدية. وتحاول الكاتبة باعتبارها متخصصة في علم النفس الصحي وعلم النفس الاجتماعي النقدي تسليط الضوء على جوانب مهمة من المقاربتين التجريبية والنقدية لتغطية حاجيات الطلاب والمهتمين حول علم النفس الاجتماعي، مع التعريف بالمقاربة النقدية التي تعتبر مقاربة صاعدة وجديدة. كما تسعى من خلال ذلك إلى إقامة توازن بين المقاربتين قصد الربط بينهما، وتحديد مكان الالتقاء ونقاط المقارنة، دون دمجها نظرا لاستحالة تحقيق وضعية توافقية واندمجية مريحة بين المقاربتين. وهذا يعزى بدوره إلى اختلاف وتضارب مرجعياتهما الإستمولوجية والأنطولوجية.

حرر الكتاب باللغة الانجليزية من طرف كاتبة متخصصة في علم النفس الصحي وعلم النفس الاجتماعي النقدي. ويعرض الكتاب خلاصة أبحاث الكاتبة حول أصول علم النفس الاجتماعي التجريبي وأفاق علم النفس الاجتماعي النقدي كمجال بحثي جديد، صاعد وواعد. يقع الكتاب في ثلاثمائة وأثنا وسبعون صفحة من الحجم المتوسط، ويبدأ بمقدمة عامة وينتهي بقائمة كلمات لها صلة بموضوع الكتاب، مصحوبة بشرح ولائحة المراجع المعتمدة وفهرس. ويشتمل على جزأين أساسيين حيث يتناول الجزء الأول بفصوله الثلاثة نقط انطلاق الكاتبة أثناء عرض الاختلافات بين المقاربتين التجريبية والنقدية. بينما يتناول الجزء الثاني بفصوله السبعة مواضيع في غاية الأهمية في علم النفس الاجتماعي.

الجزء الأول من الكتاب: نقط الانطلاق:

يحمل الجزء الأول من هذا الكتاب اسم "نقط الانطلاق"، وينقسم إلى ثلاث فصول تنقسم بدورها إلى أقسام مختلفة. يجيب القسم الأول من الفصل الأول "ما هو علم النفس الاجتماعي؟" عن سؤال جوهري حول ماهية طبيعة الصراع بين علم النفس الاجتماعي التجريبي وعلم النفس الاجتماعي النقدي. وتعزى أسباب هذا الصراع أو الخلاف بين "المعسكرين" أو "القبيلتين" حسب الكاتبة إلى ثلاثة عناصر أساسية وهي: العلم science والايديولوجيا ideology وطبيعة العالم الاجتماعي the social world.

فبالنسبة إلى علم النفس الاجتماعي التجريبي، فالمنهج العلمي هو الوسيلة الوحيدة للحصول على معرفة صالحة وفعالة حول الظواهر والسيرورة والأحداث الاجتماعية، كما أن المعرفة تبقى محايدة إيديولوجيا، وأن العالم الاجتماعي منعزل ومنفصل مع الأفراد الموجودين في نطاقه. بخصوص علم النفس الاجتماعي النقدي، فيعتبر أن المنهجية العلمية ليست السبيل الوحيد للحصول على المعرفة، وأن هذه المنهجية لا تناسب كثيرا علم النفس الاجتماعي. كما

أن المعرفة بما في ذلك المعرفة المبنية على علم النفس الاجتماعي التجريبي لا يمكن فصلها عن الايديولوجيا وأن العالم الاجتماعي نتاج التفاعل بين الناس.

يتناول القسم الثاني من هذا الفصل جذور علم النفس الاجتماعي. وفقا لذلك، فقد بدأت العلوم الاجتماعية كما نعرفها اليوم في التشكل في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. في خضم ذلك، جاء تطور علم النفس بشكل عام متأخرا بعد محاولات عسيرة في إيجاد مكان له بين باقي العلوم الإنسانية. وقد وصف Murphy (3: 1929) وضعية علم النفس كشخص متشرد بطرق باب الفسيولوجيا تارة، وباب علم الأخلاق (الإيتيقا) تارة، وباب الإيستولوجيا تارة أخرى. ويرى McDougall William (3: 1919) أن علم النفس الاجتماعي يجب أن يدرس ك مجال مستقل، وأن لا يقبل وصاية السوسيولوجيا والانثروبولوجيا لأن دوره يكمن في دراسة منابع الفعل الإنساني والدوافع والمحفزات التي تدعم النشاط الذهني والجسمي وتنظيم السلوك. وقد انتقد علماء النفس الاجتماعي علم النفس أذاك، باعتباره منحصرأ فقط على العمليات المعرفية الذهنية على مستوى الفرد، مدافعين عن ضرورة تبني مقاربة علمية في دراسة الظواهر النفسية، وكذلك أثر الصيرورات الاجتماعية مثل صيرورة انتقال المجتمع من البدائية إلى التحضر. وتعتبر أولوية الغريزة فكرة محورية في نظرية McDougall. فبالنسبة إليه، فالطبيعة الإنسانية كنتاج لسلسلة من الميولات الغريزية (الدوافع البدائية) هي الأسس الأولى للسلوك، لكن يمكن تغييرها عن طريق العادات الاجتماعية والمعايير الأخلاقية عبر القوة الحضارية the civilizing force، وذلك لدور الحضارة الأساسي في الانتقال من مجتمعات متوحشة وبدائية إلى متحضرة وحديثة ليجعل بذلك من علم النفس التطوري أساس نظريته.

إذا كان McDougall يرى الأشخاص كنتاج لغرائزهم ولدوافعهم الداخلية والبيولوجية والتي تخضع لعملية قوالب moulding بواسطة القوى الاجتماعية والثقافية لتجعل منهم أفرادا متحضرين فإن William James (1907) يرى أن الشخص كذات مدركة وواعية ذات إرادة وعزيمة تعطي المعنى للعالم بنشاط وقصدية intentionality، وبطريقة مترابطة، ما يجعلها تتمتع بإرادة حرة. بمعنى، فعلم النفس الاجتماعي لديه، ينظر إلى الأشخاص كفاعلين أساسيين، وليس كلعبة تتحكم فيها العوامل الاجتماعية والبيولوجية والنفسية.

ظهرت البوادر والتيارات الأولى لعلم النفس الاجتماعي في ظل طموحاته الساعية إلى استرداد جانبه الاجتماعي من علم الاجتماع وأبعاده الثقافية من الانثروبولوجيا. كما أن له جذور في حركتين ظهرتا في أوروبا والتي سبقتا أعمال McDougall و William James، ويتعلق الأمر بكل من علم النفس الشعبي (1) Völkerpsychologie في ألمانيا وعلم نفس الحشد/الجمهور/الجماهير crowd psychology في كل من إيطاليا وفرنسا. وحسب علم النفس الشعبي، فالأشخاص الذين ينتمون لمجموعة اجتماعية معينة يميلون إلى التفكير بطريقة جماعية: حمل نفس الآراء والمعتقدات والاشتراك في القيم والافتقار إلى الحكم المستقل كما هو الشأن بالنسبة للطوائف الدينية كجماعة طالبان، أو المجموعات السياسية ذات قضية معينة

كالدفاع عن حقوق الحيوان. ويعتبر كل من Lazarus و Steinthal أبرز مؤسسيه سنة 1900، كما يعد Wilhelm Wundt مؤسس علم النفس التجريبي أحد أبرز مناصريه. في ما يخص علم نفس الحشد/ الجمهور، فيبحث في فهم كيف ولماذا حينما تتصرف الجماهير الكبيرة من الناس معاً، نجد أنها تشغل ككيان موحد entity، وقد جاءت كاستجابة لاهتمامات الثورة الاجتماعية والسياسية في أوروبا مثل الثورة الفرنسية. ويعد المنظر الفرنسي Gustave Le Bon أكبر مناصري هذا التيار، ويتجلى ذلك في كتابه سيكولوجية الجماهير المنشور سنة 1895. ويتفق علم نفس الجماهير أو الحشود مع تصورات علم النفس الشعبي في مسألة "العقل الجمعي the collective mind". فحسب Le Bon، فإن الجمهور أو الحشد يتعرض لإثارة وغضب أو جنون جمعي collective madness يصل مستوى "الوحشية" و"البدائية" حينما يتصرف ككلية واحدة، بحيث تكون سلوكيات وتصرفات أفرادها في تنافي تام مع منزلتهم الأخلاقية ومستواهم الفكري.

يتناول القسم الثالث من هذا الفصل جذور علم النفس الاجتماعي التجريبي. وتعود أول تجربة في علم النفس الاجتماعي إلى Norman Triplett (1898)، أي قبل صدور كتاب مقدمة في علم النفس الاجتماعي لصاحبه McDougall (1909)، عندما لاحظ نتائج سباق الدرجات المنظم من طرف الرابطة الأمريكية للدراجين سنة 1897. وقد خلص إلى أن النتائج والتوقيت المسجلين في السباق من طرف الدراجين تكون أسرع عندما يكونون في سباق مع بعضهم البعض، عكس ما يحرزونه خلال السباقات الفردية. الأمر الذي دفعه إلى افتراض وجود "قوة طاقة/نشاطية" energizing force وهي عبارة عن "محرك نفسي" يتولد أثناء المنافسة، ومن خلال ذلك كون فرضية عامة مفادها أن وجود الآخرين يخلق "تأثيراً منتجاً للقوة والطاقة" dynamogenic influence. ينعكس على سلوك الفرد، ما ينتج عنه تحسين الأداء/الإنجاز. كما تم التطرق في هذا القسم إلى المدارس والنظريات التالية:

- السلوكية Behaviourism: ظهرت السلوكية في أوروبا لكنها لقيت انتشاراً كبيراً في الجامعات الأمريكية (حوالي 31 جامعة أبرزها جامعة ميشيغان). والسلوكية في جوهرها تؤمن بأن كل السلوكيات ناتجة عن دوافع غريزية وأن تعلمها يخضع لمنطق التحفيز/التشجيع أو القمع/المعاقبة.

- نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning Theory: العنصر الأساس في عملية التعلم في هذه النظرية هو "الدافع الاجتماعي"، عكس السلوكية التي يركز فيها التعلم على "الدافع الغريزي". فبفضل الدوافع الاجتماعية، يتمكن الأفراد من خلق ظروف للتعلم والتصرف وفق سلوكيات محددة. وتحدد الدوافع الاجتماعية في الرغبة في الاستقلالية، الإنجاز، العدوانية، التفوق، الاندماج الخ. عكس الدوافع الغريزية التي تتسم بالوحدة والشمولية، تختلف الدوافع الاجتماعية من مجموعة بشرية إلى أخرى، وبواسطتها يصبح الأطفال كائنات اجتماعية بناء على الدوافع والتنشئة الاجتماعية للمجموعة التي ينتمون إليها.

- علم النفس الجشطالتي Gestalt Psychology: أسست الجشطالتي سنة 1912 من طرف Wertheime. وحسب مدرسة الجشطالت، فإن السياق والتجارب الشخصية يلعبان دور الدافع المهم في طريقة فهم الناس للأشياء.

- علم النفس الاجتماعي التجريبي Experimental Social Psychology: عموما، يعد Lewin الأب المؤسس لعلم النفس الاجتماعي التجريبي، وقد اهتم بتأثيرات المجموعات الاجتماعية ودينامياتها وتغييراتها، وأسس حقله النظري على مبادئ الجشطالتي. ويرى أن السلوك يتأثر ب "الحقل النفسي" أو "الحقل الاجتماعي".

يتحدث القسم الأخير من هذا الفصل عن جذور علم النفس الاجتماعي النقدي. ففي السبعينات والثمانينات، بدأ عدد من علماء النفس أمثال Kenneth Gergen و Rom Harré و Jonathan Potter و Wetherell Margaret و Ian Parker في إدخال نظريات جديدة إلى علم النفس الاجتماعي، وتحديدًا نظرية البنائية الاجتماعية وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة، ليضعوا بذلك أسس ومنطلقات ما تسميه الكاتبة Wendy Stainton Rogers في هذا الكتاب ب"علم النفس الاجتماعي النقدي". وبخصوص مسألتَي الحداثة وما بعد الحداثة، فالحداثة تعني مجموعة من المعتقدات النظرية والأخلاقية والقيم والممارسات والمساوي، التي تم تطويرها في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية خلال فترة تاريخية من عصر الأنوار في القرن الثامن عشر. وتستند الحداثة على أربعة مبادئ رئيسية هي الديمقراطية والفردية الليبرالية والإنسانية الليبرالية والعلوم. وبخصوص ما بعد الحداثة، فقد أثرت بشكل كبير على علم النفس الاجتماعي. ومن منظورها، فإن المعرفة يتم بناءها بدل اكتشافها، وأنها، أي المعرفة، متعددة وليست مفردة، وأنها الوسيلة التي تمارس بها السلطة.

يهدف القسم الأول من الفصل الثاني المعنون ب "النموذجين الخاصين بعلم النفس الاجتماعي" إلى الحديث عن الأطر المرجعية الاستمولوجية (2) والأنثروبولوجية (3) لعلم النفس الاجتماعي التجريبي. ويميز بين الاستنباط deduction والاستقراء induction كمنطقتين للبحث والتحقق. ويقصد بالاستقراء عملية استخراج الاستنتاجات والاستدلالات من الملاحظات بغية تشكيل تعميمات generalizations تخضع بدورها لمزيد من القياس والتقييم عن طريق ملاحظة الحقائق. أما الاستنباط، فيقصد به عملية إخضاع قاعدة أو نظرية للقياس من أجل تبيان مدى مصداقيتها أو خطأها لتطويرها أو استبعادها. بينما يصف القسم الثاني الأطر المرجعية الاستمولوجية والأنثروبولوجية لعلم النفس الاجتماعي النقدي، الذي ينطلق من "نظرية البنائية الاجتماعية" كمصدر لتحصيل المعرفة. كما يقارن هذا القسم المقاربات النقدية الواقعية والمقاربات النقدية النسبية، ويركز على الاستنتاج كمنطق للاستدلال. وينتهي الفصل بملخص عام للاختلافات الكبرى بين النموذجين التجريبي والنقدي.

ينبني علم النفس الاجتماعي التجريبي عموما على موقف استمولوجي يسمى ب"الوضعية" التي ترى أن هناك علاقة مباشرة بين الأشياء والأحداث في العالم الخارجي ومعرفة الناس لها. لهذا، فغاية علم النفس الاجتماعي التجريبي هي اكتشاف معرفة موثوقة ومبنية على

الحقائق الواقعية حول العالم الاجتماعي social world، بواسطة المنهج العلمي scientific method المبنية على الجمع والتحليل المنهجين للأشياء الممكن ملاحظتها مباشرة.

يبحث القسم الثاني لهذا الفصل في موضوع أنطولوجيا وإبستمولوجيا علم النفس الاجتماعي النقدي. وحسب Wendy Stainton Rogers، فإن علم النفس الاجتماعي النقدي يبنى على أنطولوجيا ontology لا تؤمن بوجود العالم الاجتماعي خارج الطبيعة. أي أن العالم الخارجي يبنى بواسطة أفعال الناس وجهودهم لإعطائها معنى، والإبحار والتأمل في ذواتهم وحياتهم داخل هذا العالم الاجتماعي. وتسمى هذه المقاربة ب"البنائية الاجتماعية"، وتجد منطلقها ومرجعيتها في نظرية "ما بعد الحداثة" وتطبيقاتها في العلوم الإنسانية، خاصة علم الاجتماع وعلم النفس النقدي. وقد نبعت مقاربة "البنائية الاجتماعية" من نظرية تسمى سوسولوجيا المعرفة، خاصة عند صدور كتاب البناء الاجتماعي للواقع سنة 1976 لكل من Berger و Luckmann اللذان يعتبران أن الواقع الاجتماعي يبنى من خلال ثلاث مراحل وهي التخريج Externalization، والتشيء Objectification/thingification، والاستيعاب/الإدخال Internalization.

ويهتم القسم الثالث والأخير بمقارنة الأنموذجين التجريبي والنقدي بتوظيف كل من المقاربة النقدية الواقعية والمقاربة النقدية النسبية. يقصد بالمقاربة النقدية الواقعية في هذا السياق "الواقعية النقدية" التي نجدتها في نظرية ما بعد الحداثة؛ وهي تحيل إلى الواقع الاجتماعي، وليس إلى الواقع الطبيعي. وتعمل الواقعية النقدية الإبستمولوجية على ملاحظة كيف يتصرف الناس في إطار عالمهم الاجتماعي لإعطائه المعنى. وانطلاقاً من تحليل هذه الملاحظات، يتم بناء نماذج من فرضيات تفسر ما يجري حولنا. فالأفعال والظواهر حسب البحث النقدي الواقعي نتاج بنى اجتماعية (كالامساواة البنيوية) وميكانيزمات متنوعة (مثل المجتمع الأبوي).

فيما يتعلق بالمقاربة النقدية النسبية، ترى Wendy Stainton Rogers (1995) أن النسبية النقدية critical relativism هي ما يصطلح عليه ب"التأويلية interpretativism". وتحاول العلوم الاجتماعية التأويلية فهم ما يقدم الناس على فعله عن طريق كشف المعرفة البينية المضمرة، والمعاني الرمزية، والحوافز والقواعد التي توجه أفعالهم أثناء ممارساتهم وتفاعلاتهم في الحياة اليومية (Blaikie 2000:115). والبحث المبني على النسبية النقدية لا يسعى إلى اكتشاف حقائق الحياة الاجتماعية وصيروراتها وظواهرها لأنها تبقى بعيدة المنال، ولأنها ببساطة "نسبية".

يقدم الفصل الثالث "طرق وتحليلات" مجموعة من الطرق والتحليلات التي تعتمد عليها الأبحاث في علم النفس الاجتماعي. ويتحدث القسم الأول من هذا الفصل عن الأبحاث الوصفية المعتمدة من طرف علماء النفس الاجتماعي النقدي والتجريبي. أما بقية أقسام هذا الفصل، فقد خصصت للمقاربات الخاصة بالأنموذجين التجريبي والنقدي.

يتم إتباع البحث الوصفي في كلا الأنموذجين التجريبي والنقدي لتمكين علماء النفس الاجتماعي من الوصف الدقيق للظواهر المدروسة. وتعد دراسة الخضوع/الطاعة بواسطة Milgram مثالاً للبحث الوصفي وفقاً للأنموذج التجريبي العلمي. تبين هذه الدراسة أن الناس العاديين يمكن استمالتهم للتصرف بقسوة وبرودة إذا تم الضغط عليهم لطاعة وجه سلطوي. وتحاول إثبات وجود الطاعة/الخضوع دون شرح لماذا وكيف يتم الحث على الطاعة والخضوع. بينما يعتبر استعمال Hollway للتأويل الوصفي مثالاً للبحث الوصفي في الأنموذج الاجتماعي البنائي. والغاية من ذلك، هي إشهار وإسماط فهم الناس لتجاربهم وأرائهم. أي أن البحث الوصفي وفق الأنموذج النقدي لا يركز على الجانب المنهجي بقدر ما يسعى إلى فهم واستبصار الطرق الخاصة التي من خلالها يتم فهم موضوع أو قضية معينة من طرف المستجوب.

أما القسم الثاني، فيدرس طرق وتحليلات في علم النفس التجريبي، إذ أنه يستعرض المنهج التجريبي ومنطقاته النظرية والمقاربات الموظفة في هذا المنهج. على غرار العلوم الطبيعية (علوم الأرض مثلاً)، فعلماء النفس الاجتماعي يقومون كذلك بتجارب ميدانية شريطة إمكانية خلق ظروف تجريبية موثوقة. علاوة على التجريب الميداني، يتم كذلك إنجاز تجارب مخبرية في غرفة عادية معزولة عن العالم الخارجي لعزل الناس عن التأثيرات الخارجية ما أمكن. ويتم الاعتماد على عدة تقنيات لجمع المعطيات وتصنف إلى:

- تدابير المراقبة Observational measures، وتأخذ من الملاحظة المباشرة لسلوك الأفراد المعنيين بسؤال البحث.

- تدابير التقرير الذاتي self-report measures، وتتم عن طريق تقديم أجوبة لاستمارة أو سلم/جدول أسئلة، أو مقابلة/استجواب للتعرف على آراء ومواقف والإدراك الاجتماعي للناس.

- التدابير الضمنية implicit measures، وتهدف إلى التغلغل إلى الفكر اللاشعوري للفرد بطريقة غير مباشرة.

- البحث النوعي qualitative research، ويتميز بخاصية القياس غير المباشر وإدخال المعطيات غير الرقمية في عملية البحث.

علاوة على استراتيجيات البحث التالية:

- التمثيلية representativeness، وتعني ضرورة التأكد من أن الناس المعنيين بالدراسة (أو الذوات التجريبية experimental subjects) يمثلون الناس الذين ينطبق عليهم سؤال البحث أو النظرية.

- الواقعية realism، وتهتم بدرجة تطابق أو تقارب فضاء ومحيط التجربة مع شروط الحياة الحقيقية/ الواقعية real-life.

- المراقبة control، وتهدف إلى عزل المتغيرات الخارجية extraneous variables، ومراقبة استعمال المتغيرات المستقلة independent variables، وقياس المتغيرات المشروطة بدقة dependent variables.

يقدم القسم الأخير من الفصل الثالث مجموعة من الطرق والتحليلات في علم النفس النقدي. ويؤكد أن علم النفس النقدي يتبنى البنائية الاجتماعية كإطار نظري للبحث. وتهتم البنائية الاجتماعية بالوسائل المتنوعة لبناء الواقع الاجتماعي الموجود في الثقافة، لمعرفة وفهم ظروف استعمالها وتتبع تأثيرها على التجربة الإنسانية والفعل الاجتماعي. وتختلف عن النموذج التجريبي في عدم ادعاء الموضوعية والتمثيلية والواقعية والمراقبة والتقييم. وتعتمد على جمع المعطيات عن طريق تقنيات جمع النصوص المكتوبة، المحادثات، الحوارات، المناقشات، الاستثمارات والصور. كما يعتبر تحليل الخطاب مقارنة مهمة في البحث الاجتماعي البنائي.

وقد طور علماء النفس الاجتماعي النقدي فروعاً من تحليل الخطاب مثل تحليل الممارسات الخطابية وتحليل الموارد الخطابية. وبعد تحليل الممارسات الخطابية نوعاً من تحليل الخطاب الذي يهتم بكيفية استعمال الناس للموارد والإمكانات الخطابية لبلوغ غايات متبادلة في التفاعل الاجتماعي. ومن أمثلة ذلك: اللغة المستعملة أو الخزانات اللغوية (أي الحديث الطبيعي أو المؤلف). أما تحليل الموارد الخطابية، فهو نوع من تحليل الخطاب لا يهتم بالاستعمال الاستراتيجي والمدرّس للخطاب في نص معين، وإنما كيفية عمل واشتغال الخطاب في وضعيات عامة كالسياق الاجتماعي والثقافي للخطاب، وكيفية إنتاجه واستمراره وتطوره في تلك السياقات.

الجزء الثاني للكتاب: موضوعات في علم النفس الاجتماعي:

يحمل الجزء الثاني من هذا الكتاب اسم "موضوعات في علم النفس الاجتماعي"، ويشتمل على سبعة فصول تتطرق لأهم القضايا والأسئلة والإشكاليات التي تشد انتباه علماء النفس الاجتماعي، كما تثرق بالهم في الوقت نفسه. يدرس الفصل الرابع "التوصل واللغة" مختلف الطرق التي يوظفها علم النفس الاجتماعي لمعرفة كيف يتواصل الناس فيما بينهم. ويركز أساساً على الوسيلة الأكثر أهمية في التواصل وهي: اللغة. وتكمن أهمية اللغة في كونها تقع في قلب اهتمام علم النفس الاجتماعي النقدي، لارتباطها الوثيق بفهم مواقف الناس وعالمهم الاجتماعي. كما يهتم علم النفس الاجتماعي التجريبي بدراسة اللغويات الاجتماعية. هذه الأخيرة، تركز على اللسانيات وعلم اللغة النفسي لدراسة كيفية استعمال وتوظيف اللغة في الوضعيات والسياقات الاجتماعية في إطار نظرية التواصل. بموجب هذه النظرية، فالتواصل الإنساني يتميز عن التواصل الآلي بكونه نشيطاً وذو معنى وديناميكي واجتماعي. تتبنى نظرية التواصل على عدة مفاهيمية أساسية لفهم التواصل الإنساني. وتضم ستة عناصر: مصدر المعلومة والمرسل والرسالة والقناة والمستقبل والوجهة.

في هذا الفصل كذلك، تم التحدث عن التواصل غير الكلامي/غير اللفظي/غير الملفوظ، هذا النوع من التواصل يرافق نظيره الملفوظ أو الكلامي، ويلعب دور المدعم له، لأنه يعطي المعلومات عن الأحاسيس والمشاعر والانفعالات، كما يمكن أن يعوضه كما نجد في حركة اليدين المعبرة عن الرفض مثلاً. ويدخل ضمن هذا النوع من التواصل: تعابير الوجه، التفرس، التواصل بالعين، وضعية الجسد وحركاته، المسافة بين الأشخاص، اللمس، الرائحة الخ.

يتكون الفصل الخامس الموسوم بـ "فهم العالم الاجتماعي" من خمسة أقسام. فالقسم الأول، يهتم بطرق معالجة المعلومات من طرف الناس قصد فهم العالم الاجتماعي مثل تشكيل الانطباع impression formation، المفعول/الأثر الأولي أثناء الحديث primacy and recency effect، الانحياز السلبي والإيجابي negative and positive bias. أما القسم الثاني، فينظر إلى أنموذج المعرفة الاجتماعية social cognition method للنظر في أصولها ومنطلقاتها، لبحث وتبيان كيفية وطرق فهم الناس للصيرورات والبنى الاجتماعية. وتتمثل منطلقات وأصول المعرفة الاجتماعية على وجه التحديد في نظرية المعرفة النفسية العامة general psychological cognition، والتي أسسها (1966) Neisser Ulric انطلاقاً من أعمال Bartlett (1932). وتقوم نظرية المعرفة الاجتماعية بربط المعرفة بالظواهر والوضعيات والصيرورات الاجتماعية بناء على استراتيجيات المعالجة processing strategies مثل التصنيف categorization، والتمهيط stereotyping، وترميز الأصناف encoding of categories، وخلق الشبكات الترابطية associative networks، والخطاطة schema.

أما القسم الثالث فيدرس نظرية الإسناد attribution theory من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي باعتبارها موضوعاً خصباً وصعباً في الآن نفسه. وتقوم هذه النظرية على أعمال Heider الذي فصل بين "الإسناد الشخصي" personal attribution و"الإسناد غير الشخصي" أو "الوضعياتي" impersonal /situational attribution. ويقترح ما أسماه "الاستدلال المطابق" correspondent inference، وهي الاستدلالات أو الاستنتاجات التي يقوم بها الناس حول ما إذا كانوا يتصرفون بالتطابق مع أدوارهم الاجتماعية أو من خلال رغباتهم الفردية.

ويتناول القسم الرابع التطورات النظرية الأخيرة لميدان المعرفة الاجتماعية، متمثلة في نماذج المعالجة العميقة للمعرفة الاجتماعية التي طورها علماء النفس الاجتماعي الأوروبيون. هذه النماذج تركز على دور كل من اللغة والسياق الفعلي في نقل وأجراً وتشغيل المعرفة الاجتماعية التي تصبح معقدة ومركبة في الوضعيات الحياتية الفعلية أو الحقيقية، إضافة إلى قابليتها على أن تكون محفزة أو محركة/معبئة. وتنقسم هذه الأجراً إلى نوعين مختلفين من حيث طريقة المعالجات: المعالجة السطحية والمعالجة الآلية.

أما القسم الأخير من هذا الفصل، فيتطرق إلى أنموذج مخالف والمتمثل في نظرية البناء الشخصي *personal construct*، وحسب هذا الأنموذج الذي ابتكره George Kelly، فالصيرورات والظواهر النفسية شخصية/ ذاتية في المقام الأول؛ أي أنها تقع في ذهن الشخص. فالتناس من هذا المنظور، علماء سذج/ بسطاء *naive scientists* يقاربون الحياة عن طريق بناء مجموعة من الفرضيات الفعلية قصد التصرف. وكل حدث جديد يتم فهمه عن طريق البناء الشخصي الذي يستمد من التجربة الفردية. وكل مجموعة من الأشخاص الذين لديهم نفس البناء الشخصي تكون لديهم نفس التنشئة الاجتماعية.

يضم الفصل السادس "قيم ومواقف" أربعة أقسام أساسية. فالقسم الأول والثاني يقدمان نظرية الباحث الأمريكي (1973) *Milton Rokeach* حول القيم مرفقة بالدراسات التي قام بها بهذا الخصوص وبعض الأمثلة للقيم العابرة للثقافات كالفردانية والجمعية، مفهوم التراتبية وعلاقات السلطة بين الموظفين، الذكورة والأنوثة إلخ. وتبعاً لذلك، ف نظام القيم هو تنظيم مستمر للمعتقدات المتعلقة بالأشكال المفضلة للسلوك (شخصية أو اجتماعية) أو الأوضاع النهائية للوجود وحياة الأفراد. والقيم أيضاً، مجموعة تمثلات معرفية *representations* *cognitive* ليس فقط للحاجات الفردية وإنما للمتطلبات المجتمعية والمؤسسية. وهي نتائج التقاء القوى الاجتماعية (مؤسسات التنشئة الاجتماعية) والنفسية (الحوافز والدوافع الذاتية) وانعكاسها على الفرد.

وحسب *Rokeach*، فوظائف القيم متعددة من حيث توجيهها لتفكيرنا وسلوكنا كأفراد. من بين وظائف القيم أنها توفر لنا القاعدة للحكم الاجتماعي على سلوكنا أو سلوك المجموعة التي ننتمي إليها أو غيرها من المجموعات الاجتماعية قصد مدحها أو لومها. وتقوم القيم كذلك بوظيفة توليد والحفاظ والدفاع عن شرف وتقدير المجموعة عن طريق تبرير أفكارها ومعتقداتها، إضافة إلى توجيه آراء المجموعة، فيما يخص مواقفها من القضايا الأخلاقية والاجتماعية. كما أنها تعد مصدر للحافزية حتى تحقيق الأهداف، ومرجعية لسلوكياتنا داخل المجموعة، وموجهة لانتجاننا، علاوة على وظيفة التأثير الاجتماعي فيها.

وقد قسم *Rokeach* القيم إلى صنفين أساسيين هما القيم الوضائية/الوسائلية والقيم النهائية. فالنوع الأول يهم أشكال التصرف/السلوك، ويضم القيم الأخلاقية وقيم الكفايات (الذكاء، المنطق، التخيل). والنوع الثاني يهم الوضعيات النهائية كالأغايات والطموحات، وهي تنفرع بدورها إلى قيم الوضعيات النهائية الفردية (راحة البال، الاعتناق/الخلاص)، وقيم الوضعيات النهائية الجماعية (الأخوة، السلم العالمي).

يركز القسم الثالث من هذا الفصل على مفهوم المواقف *attitudes* باعتباره من المفاهيم الأساسية في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الاجتماعي التجريبي على وجه التحديد، لأن دور المواقف يظهر جلياً في كل مستويات التأثير الاجتماعي. ويعرف *Gordon Allport* المواقف كاستعداد ذهني وعصبي منظم عن طريق التجربة يمارس تأثير خاص وديناميكي على استجابة

الفرد لكل الأشياء والوضعيات المحيطة به. وحسب (Eagly and Chaiken 1998: 269)، فالموقف هو ميول نفسي يعبر عن درجة من التأييد أو الاستياء اتجاه كيان معين. ويتكون الموقف عموماً من عناصر معرفية وعاطفية وسلوكية.

أما وظائف المواقف فهي كالتالي:

-وظيفة تثمين الأشياء

-وظيفة وسائطية/وسائلية (أو وظيفة نفعية)

-وظيفة الهوية الاجتماعية

-وظيفة الإبقاء وصيانة تقدير/احترام الذات

-وظيفة تنظيمية

-وظيفة تعبيرية

والوظائف السالفة للمواقف تعرف بدورها تغيراً من حيث الأهمية نظراً للعوامل التالية:

-الاختلافات الثقافية

-خصوصية المواقف

-قوة المواقف

-بروز وأهمية المواقف

يدرس القسم الرابع والأخير من الفصل السادس ظاهرة تغير المواقف attitudes change. ويعتبر الاتساق المعرفي cognitive consistency أحد أسباب التي تؤدي إلى تغير المواقف في حالة ظهور تناقضات أو حالة تضارب ولا اتساق inconsistency بين موقف الشخص والوضعية الجديدة لضمان التوازن equilibrium. ويرى Heider (1946) صاحب نظرية التوازن Balance Theory، أن الناس يبحثون عن التوازن في مواقفهم عن طريق تفادي أو تكيف أو تغيير حالة اللاتوازن التي قد تظهر في الحياة اليومية للأفراد. كما يمكن للإغواء persuasion أن يسفر عن تغير في المواقف وما يصاحب ذلك من تغير في السلوك. ويختلف الإغواء عن الإقناع convincing بكون الأول يسعى إلى التأثير على الشخص بمخاطبة مشاعره وأحاسيسه، بينما يسعى الثاني إلى إحداث تغيير في مواقف وسلوكيات الشخص عن

طريق تقديم أدلة وأفكار علمية تخاطب العقل. ولإحداث تغيير في الموقف، يمكن إتباع مجموعة من الطرق والمقاربات مثل:

-النموذج التواصلي The Communication Model

-نموذج الاستجابة المعرفية The Cognitive Response Model

-نموذج احتمال وضع The Elaboration Likelihood Model

-النموذج الكشفى المنهجي/النسقي The Heuristic-Systemic Model

ينقسم الفصل السابع المعنون بـ " بناء العالم الاجتماعي " إلى ثلاثة أقسام. يهتم القسم الأول بعرض تاريخ التمثلات الاجتماعية social representations والعناصر الأساسية لمقاربة Serge Moscovici (1960)، حيث ربط بين التمثلات الاجتماعية الجمعية والتمثلات الاجتماعية الفردية لدى إميل دوركايم. ويركز هذا القسم أيضاً على التمثلات الاجتماعية للصحة والأمراض بناء على دراسة قامت بها Claudine Herzlich.

يركز Moscovici في مفهومه حول التمثلات الاجتماعية حول أهمية الإدراك المشترك كوسيلة للتواصل بين الناس وكقاعدة للمجموعات الاجتماعية لتشكيل وبناء العالم الاجتماعي. بمعنى أن مشاركة التمثلات الاجتماعية العامة والشائعة بين الناس تجعلهم مجموعة اجتماعية متماسكة وليس مجرد مجموعة من الأفراد. فيما يتعلق بالتمثلات الاجتماعية للصحة والأمراض حسب دراسة Herzlich التي أجرتها على المجتمع الفرنسي سنة 1960 على وجه التحديد، فإن تلك التمثلات الاجتماعية لا تشكل أضداداً قطبية polar opposites بل تصورات منفصلة بديلة alternative discrete conceptions. وقد ميزت بين ثلاث تمثلات اجتماعية أساسية للصحة، وهي:

-الصحة في فراغ (حالة انعدام الألم أو حالة عدم الوعي به) health-in-a-vacuum

-الحفاظ على الصحة reserve of health

-التوازن equilibrium

وثلاث تمثلات أساسية للصحة وهي:

-المرض كدمر illness as destroyer

-المرض كمحرر illness as liberator

أما القسم الثاني من هذا الفصل، فيتطرق إلى نظرية الخطاب المنطقي discursive theory التي تعتبر القاعدة والأساس النظري للبحث التحليلي للخطاب. وينطوي هذا القسم على مقاربتين أساسيتين هما: الممارسات الخطابية discursive practices والموارد الخطابية discursive resources. فمقاربة الممارسات الخطابية تعتمد على الخطاب/الكلام speech (المبني على اللغة) كممارسة وكصيرورة اجتماعية من خلال التركيز على ما يفعله الناس بالخطاب وكل ما يحاولون الوصول إليه أثناء توظيف إستراتيجيات خطابية discursive strategies مختلفة. كما تقوم كذلك على تحليل المحادثة conversation analysis عن طريق دراسة وحدات وأشكال الحديث/التحدث الطبيعي واليومي كطرق افتتاح وإنهاء المحادثة وتبادل الأدوار في الحديث وكيفية استعمال اللغة. أما مقاربة الموارد الخطابية، فتقوم على علم النفس السردى narrative psychology. ويقصد به الطريقة التي يعطي بها الناس معنى ودلالة للعالم من خلال الحكى والحكايات والخرافات والأساطير كأشكال تمثيل طبيعية للنشاط الرمزي الإنساني.

أما القسم الثالث والأخير من هذا الفصل، فيعرض رأي علم النفس الخطابى/الاستطاردى discursive psychology تجاه نظريتي المواقف attitudes والنسب attribution/الإسناد. ينظر علم النفس الاستطاردى إلى المواقف نظرة تفتيتية و تجزئية atomic ما يحرمه من اكتشاف كيفية ترابطها وعلاقتها بالأحكام والعوامل الأخرى كالقيم. كما يعالج المواقف بطريقة معزولة تتم داخل عقول الأفراد مع تجاهل الصفات الذاتية المشتركة والبيئية. إلى جانب ذلك، يدرس علم النفس الاستطاردى تغير المواقف وعلاقة ذلك بتغير السلوك مع تجاهل لأدوارها ووظائفها. فيما يتعلق بموقف علم النفس الاستطاردى من نظرية النسب/الإسناد، فالأخيرة يجب أن يتم جعلها جزءاً لا يتجزأ من الممارسة الخطابية لأنها عملية سيميائية يتم نقلها عن طريق الثقافة، وموجودة في كل أشكال الخطاب التي تهدف إلى الرفع من قوة ومصلحة المجموعة. كما يعتبر علم النفس الاستطاردى الناس كمفاوضين negociators أكفاء للواقع، وكمستعملين جيدين لاستراتيجيات النسب والإسناد.

يقدم الفصل الثامن "ذوات وهويات" تلخيصاً لأفكار كل من James و George Herbert Mead و Irving Goffman حول الذات. فالأول يميز بين "Me" (أنا)، وتعني الذات كما هي معروفة ومدرّكة، ومكونة من مادة وجوانب اجتماعية وروحية، وبين "I" (أنا) كذات عارفة ومدرّكة ومنتجة من طرف تدفق الوعي. والثاني يرى أن "Me" و "I" يدخلان في علاقة جدلية، وأن الذات انعكاسية لأنها قادرة على ملاحظة والتخطيط والاستجابة لأفكارها وسلوكها. أما Goffman، فقد اقترح أنموذجاً مسرحياً للذات حيث يتكون التفاعل من "صورة الوجه"، لأن الناس يسعون جاهدين إلى الحفاظ على صورتهم (أي حفظ وجههم) وصورة الآخرين. فالعالم إذن شبيه بمسرح يلعب فيها الناس دور الممثلين في دراما الحياة.

كما يفصل هذا الفصل في جوانب الذات ويقسمها على النحو التالي:

-الذات الفردية: وهي الذات المدركة والواعية بوجودها. إنها الذات الفردية المتفردة بشخصيتها وبمجموعة فريدة من القيم والمواقف والمعتقدات.

-الذات الاجتماعية: وتعني مجموعة من الذوات الاجتماعية والتي تختلف باختلاف الوضعيات الاجتماعية. أي الذوات المحددة بالسياق الاجتماعي كمكان الوجود (خاص أو عام)، وضعيات رسمية أو غير رسمية ...

-الذات العلائقية: وهي الذات التي تتشكل من خلال العلاقات المترابطة للشخص مع الآخرين: العائلة، الأصدقاء، المجتمع الخ.

-الذات المحددة بيولوجيا: وتسمى الذات الطبيعية لأنها تنظر إلى الناس كنتاج للطبيعة الإنسانية؛ أي أنهم يولدون بصفات فطرية مشفرة وراثيا تشغل كمحدد أساسي لطابعهم وشخصيتهم.

-الذات الذاتية المشتركة: ذات انعكاسية لأنها مستبصرة وفطنة وحساسة ومدركة لنفسها وممارسة لرقابة ذاتية. وذات متصلة لأنها تشارك ذاتيتها مع الآخرين عن طريق نظام مشترك للمعاني. وذات متموقة في العالم، لأنها ليست منفصلة عنه. وذات مقصودة، لأن حضورها يتأسس على طرق هادفة وإستراتيجية لتفادي أي خطر قد يعترضها. ونتاج صيرورة الحضور في الممارسات عن طريق التنشئة الاجتماعية والنفسية.

وسم الفصل التاسع بعنوان "المجموعات"، ويهدف إلى تعريف معنى المجموعة ويقسمها إلى ثلاثة أنواع أساسية. فالنوع الأول يسمى المجموعات العرضية. هذه المجموعات تكون صغيرة ويلتقي الناس فيها لمدة قصيرة غالباً ما تكون ساعات فقط مع قدر أدنى من الالتزام والمشاركة. والنوع الثاني يطلق عليها المجموعات العضوية يتمتع فيها أفرادها بالعضوية حيث يلتزمون لأهداف وقيم مجموعتهم، ويمكن لعضويتهم أن تدوم لأسابيع أو لشهور أو لأعوام. أما النوع الثالث فيسمى مجموعات الهوية المرجعية، وهي المجموعات التي تعطي الهوية الاجتماعية للفرد لأنها تحدد انتماءه.

يتطرق هذا الفصل في قسمه الثاني لمسألة التأثير الاجتماعي في المجموعات. من تجليات هذا التأثير نجد مفهوم الامتثال obedience. ويتحقق الامتثال عندما تنجح الأغلبية في استمالة الأقلية للاذعان لقواعدها ومعاييرها ولأحكامها. كما نجد كذلك مفهوم المعايير norms أو قواعد السلوك. وتعني مبادئ السلوك المشتركة الصريحة والضمنية لدى أفراد مجموعة ما. كما أن القيم الثقافية لها تأثير اجتماعي كبير على الأفراد خاصة في المجتمعات ذات القيم الجمعية.

للسخرية التي ظهرت إلى حد الآن. والصنف الثاني الذي يعكس العرقية في علم النفس الاجتماعي توجد أصوله في المؤسسات، لأن التنشئة الاجتماعية تجعل من أفراد المجتمع ضحايا لأنها تكسبهم آليات التصنيف الموجهة والتلقائية لفهم العالم وتشكيل تفكير نمطي لديهم مما يؤدي إلى بناء آليات التحيز والأفكار القبلية. ولتفادي أشكال العرقية في علم النفس الاجتماعي بشقيها العلمي والمؤسسي، تقترح الكاتبة جملة من التوصيات والمقترحات أهمها:

- على علم النفس الاجتماعي ابتكار مناهج ونظريات تعترف بالعوامل الثقافية كعناصر كامنة وملازمة في جميع العمليات والظواهر النفسية الاجتماعية ومن ثم جعلها جزءا لا يستغنى عنه في كل دراسة.

- على الباحثين أخذ السياق والثقافة بعين الاعتبار ووقف الادعاء أن أي دراسة أجريت على مجموعة معينة يمكن تعميم مصداقيتها وتطبيقها على مجموعات أخرى.

- على الأبحاث في علم النفس الاجتماعي أن تلتزم بأخلاقيات الاختلاف والتنوع وذلك بإدماج أكبر عدد ممكن من النظريات في دراسة واحدة والنهل من المناهج المستعملة في ميادين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والجغرافيا الاجتماعية وتكييفها مع علم النفس الاجتماعي.

في القسم الثاني والأخير، تعرض الباحثة Wendy Sainton Rogers كيفية الاستفادة المتبادلة بين علماء النفس الاجتماعي التجريبي وعلماء النفس الاجتماعي النقدي من أجل البحث المشترك عن طريق اعتماد طريقة التقابل بين الأشياء غير القابلة للمقارنة (نموذج شانك 1998). في هذا الصدد، قامت الباحثة بإقامة تقابل بين أمثلة من علم النفس الاجتماعي التجريبي وأخرى من علم النفس الاجتماعي النقدي لكشف المشترك بينهما رغم استحالة الدمج والاندماج بين المجالين. ومن بين التقابلات التي قامت بها في كتابها هذا نجد:

-نظرة الدراسات التجريبية والنقدية للحكم المسبق.

-نظرة الدراسات التجريبية والنقدية لسلوك المجموعة.

خاتمة:

تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه يقدم للطلاب والباحثين والمهتمين نظرة شمولية حول علم النفس الاجتماعي فيما يتعلق بتاريخه وواقعه ومآله. كما يبين نقط الاختلاف بين مقاربتين approaches أو "معسكرين" camps أو «قبيلتين» tribes كما يحلو لصاحبة هذا الكتاب تسميتهما. وتتجلى هاتين المقاربتين التي تصارع وتنافس إحداها الأخرى حد التضارب واستحالة تحقيق وحدة واندماج بينهما في المقاربة التجريبية والمقاربة النقدية في علم النفس الاجتماعي. ويرجع السبب وراء هذا الاختلاف حسب الكاتبة إلى التضارب الصارخ في المرجعيات الاستمولوجية

والانطولوجية المؤطرة لكلتا المقاربتين (النظرة إلى المنهجية العلمية ووضع الإيديولوجية تم طبيعة العالم الاجتماعي).

وإذ تحاول الكاتبة التأسيس لمصالحة بين المعسكر التجريبي والمعسكر النقدي عن طريق الدعوة إلى التنسيق البحثي بين "القبيلتين" في مجالات علم النفس الاجتماعي والبحث عن نقط الالتقاء بين المقاربتين، فإنها تعترف بصعوبة بل استحالة تحقيق وحدة واندماج تام بينهما. كما تلفت أنظار الباحثين في علم النفس الاجتماعي إلى ضرورة الاهتمام بالمقاربة النقدية لكونها لا تزال مجالا خصبا جديدا وصاعدا بمقدوره فتح آفاق بحثية واستطلاعية واعدة وغنية ومفيدة.

إضاءات وشروحات:

- (1) تتم ترجمته كذلك بعلم نفس الإنسان العادي (psychology of ordinary people).
- (2) قسم من الفلسفة يهتم بطبيعة المعرفة (شروط المعرفة الصحيحة و كيفية الحصول عليها). أما في ميدان علم النفس الاجتماعي، فتهتم بالفرضيات المتعلقة بالمعرفة الصحيحة للعالم الاجتماعي (في مقابل الآراء والمعتقدات) و طرق الحصول عليها.
- (3) قسم من الفلسفة يدرس ماهية الأشياء ووجودها في العالم. وفي ميدان علم النفس الاجتماعي، يهتم بالفرضيات المتعلقة بطبيعة العالم الاجتماعي: مكوناته، وحداته والعلاقة الموجودة بينها.